

السرد ، المصطلح و المفهوم

باي عز الدين

جامعة وهران

يمثل مصطلح السرد مركز الاهتمام في النقد الروائي المعاصر ، كونه يجسد صيغة الخطاب في الرواية ، و كونه أيضا ، مرتبطا بطرائق الحكى ، وما يتبع هاتين العمليتين من عوامل و تحولات لغوية تركيبية لهما علاقة بتوجيه السرد لخطاب الرواية. و تنقسم مفهومة السرد تنظيرات مختلفة : أهمها النقد اللسانياتي والأسلوبي والسيميائي ، علما أنها لا تنحصر في المجال الأدبي ، مما أدى إلى إحداث تداخل متشابك في المفهوم أسهم، بشكل ما ، في إحداث نوع من الاضطراب المنهجي من الناحيتين ، النظرية و الإنجازية .

فالبحوث التي أجريت في هذا الميدان قد « تمت لسوء الحظ متوازية في بلدان مختلفة ، و في نفس البلد ، وفق أهداف مختلفة ، و إن إحدى النتائج المترتبة في هذه الحالة هي تعويم المعجم المستعمل ، و هذا التعويم يمكن أن يؤدي إلى سوء تفاهات متعددة »⁽¹⁾ ، و طرح تساؤل هو: ما المنهج الأقدر على تحقيق كشف إجرائي دقيق للعملية السردية ؟ خاصة أن السرد أصبح بمثابة الساحة التي تتصارع فوقها فروع ونظريات واختصاصات مختلفة .

و في رأيي ، قد أسهمت هذه الحقول النقدية و غير النقدية مجتمعة في إبراز وسائل التعامل السردية، خصوصا أن مجملها يكاد يجمع على مقارنة النص الروائي في حدوده

باي عز الدين

اللغوية ، مما أكسب مفهوم السردية نوعاً من التشويش في الوقت الذي صبغها بالاستقلالية لكن هذه الاستقلالية لا تعني انفصالاً عن مجموعة من العلوم الأخرى ، مثل النحو ، و مقولات اللسانيات و الدلالة ، و هذا يعني أنّ السرد ، في الحقيقة ، لم يبلغ من الناحية النظرية اكتماله و استقلاله .

و من الواضح - أن المصطلحات - من حيث هي ركائز مناهج النقد الأدبي هي التي تيسّر السبل و الوسائل التي يتوصلها الدارس أثناء عملية التحليل ، و يقصد بها أهدافاً معينة ، فيكتسب المصطلح بذلك ضمن تحليل النظام اللغوي على وجه الخصوص» مواضعة مضاعفة ، إذ يتحول إلى اصطلاح في صلب الاصطلاح ، فهو إذن نظام إيلاغي مزرورع في حنايا النظام التواصلية ⁽²⁾ ، وبتعبير آخر ، تمثل المصطلحات علامات مشتقة من جهاز لغوي واسع ، في الوقت نفسه الذي تدرس فيه هذا الجهاز .

فحينما تحتضن اللغة المصطلح في الاستعمال المنهجي ، تجبره على تحمل شحنة دالة ، بسبب التداخل المنهجي بين فروع معرفية متعددة ، على نحو : اللغة ، و العلم ، و المنطق ، و الإبستمولوجيا ... فتحيله إلى مفهوم معرفي دال ، قد تتعدى دلالاته ، و قد لا تتعدى حدود العلاقة بين المفهوم و فرع من تلك الفروع.

و بهذا المعنى لا يمكن عزل مصطلح السرد في النقد الجديد عن رصيده الاصطلاحي عما تراكم من رصيد اصطلاحي في مجال النقد الأدبي و اللسانيات الاجتماعية ... و علم السيمياء ... و غير ذلك من العلوم و الحقول المعرفية ذات الصلة بهذا المصطلح ⁽³⁾ .

و كان من نتائج ذلك بعد تقصي بعض الكتابات حول مصطلح السرد أنّ مسمياته تعددت إلى : علم السرد ، السردية ، المسردية ، الساردية ، السرديات ، نظرية القصة ، القص ، القصصية، القصيات ، السردلوجيا ، الناراتولوجيا ، الحكى ، الحكائية ... فالسرد، المسرود، السارد، المسرود له ، السردانية، السرديات ... إنّها شبكة من المصطلحات و المفاهيم المتداخلة المختلفة في الوقت نفسه (4) .

و لا غرو ، أنّ هذه المصطلحات و إن دلت على المصطلح نفسه في عمومها، إلا أنّها تحمل اختلافاتها معها كما سنرى .

و ما يمكن ملاحظته في البدء أنّ مفهوم السرد قد اكتسب فعالية إجرائية في الأبحاث التي استفادت من كتابات النقاد البنويين (5) .

و يعود مصطلح السردية *Naratologie* إلى تودوروف T.Todorov الذي صاغه عام 1969 ، للدلالة على علم السرد *La science du recit* ، و ينبغي أن يفهم علم السرد هنا بمعناه الواسع ، و تبعا لذلك ، فلا ينبغي أن تقتصر دلالة السرد على فن الرواية والقصة القصيرة ، إنّما تسع لتشمل بدالاتها ، الحكايات الشعبية و الأساطير والأفلام و المسرحيات ... (6) .

و يؤكد بوريس اخنباوم B.Eickenbaum على أنّ السرد يعتبر « أحد العناصر التي تحدد شكل العمل الأدبي ، و في بعض الأحيان يكون العنصر الأساسي » (7)، للفعل المروي ، على اعتبار أنّ السرد نظام لغوي علامي مقنن بمعايير محددة و ثابتة الصيغ، بل أكثر من ذلك ، فالقصة المروية ، هي غالبا ، أكثر من مجرد تعيين لعناصر في نسق معين مهما و ان امتاز هذا التعيين بالتسلسل أو التعاقب للفعل المروي .

و يعرف توما شفسكي Tomachevski السرد في تحديده الفرق بين المتن الحكائي (Fablo)، و البنى الحكائي، السرد (Sujet)، تبعا لهذا التفريق لاللا . ففي مقابل المتن الحكائي الذي هو مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها والتي تقع إخبارنا بها أثناء العمل (8)، يوجد المبنى الحكائي الذي يتألف من نفس الأحداث، بيد أنه يراعي نظام ظهورها في العمل، كما يراعي ما يتبعها من معلومات تعينها لنا (9)، إذن المبنى الحكائي ينظم المتن الحكائي، فالأحداث خيالية كانت أم واقعية كمتن حكاوي هي من فعل لغة محسوبة، قد توجد في مجرى السرد، في شكل تحولات أسلوبية، وستتجز هذه الأحداث، و بمكر، على مستوى الأسلوب، في صورة استيلاء وانفراج (10) في الوقت ذاته .

و يرى جان بيير فاي J.P.Faye تقابلا، غير متناظر بين المبنى و المتن إذ تتصل خصائص الموضوع السردى بالموضوع الذي يخضع إلى التغيير ... لكن العلاقة الأساسية التي تميزهما، و تفرقهما عن كل موضوع ليس سوى هذا الموضوع الذي يغير موضوعه، و الخاصية الأساسية للموضوع السردى تكمن في الفعل الاجتماعي الذي يغير بدوره الفعل السردى : إنه فعل اللغة التي تعمل على تغيير فعل موضوع القصة أو الحكاية (11)، مع التذكير، كما ورد فيما سبق، أن موضوع الخطاب هو بنية دالة تصب فيها مجموعة من السياقات والصيغ اللغوية، تمثل نمطا من التراكم اللغوي في النص الروائي في شكل وصف أو سرد على نحو ما يوجد في الواقع من تراكمات هي بدورها خاضعة بشكل من الأشكال للوصف و السرد.

فالقصة بالمنظور السردى هي تركيب بين متناظرات تحفظها ثلاث سمات هي : الوساطة التي تؤديها الحكاية بين الأحداث المتعددة والقصة الموحدة، وأولية التوافق على

التضارب ، و أخيرا التناقص بين التعاقب والصياغة التصويرية (12). و لعل الزمن هنا يأخذ نصيبه في المسار السردى ، إذ أن سرد الأحداث يتم عن طريق اللغة من وجهة نظر زمنية ، مع ما يمثل هذا الزمن من انقضاء وجريان ، كما أن الصياغة التصويرية يجب أن تتم في ظل هذا التعاقب ، و لا ينبغي لها أن تتم إلا عن طريق اللغة، في صورة بنية خطية داعمة لهذا التعاقب .

و بتعبير جيرار جينيت G.Genette، فإن الصيغة الوحيدة التي يعرفها الأدب، بما أنه تمثيل ، هي السرد ، المعادل اللفظي لوقائع غير لفظية (13) ، فكلمة سارد Narrateur تعني ممثلا كما علمنا ذلك فقه اللغة ، كما أن الخطاب السردى يتكون من ثلاثة عناصر هي: الحكاية والسرد والخطاب، وينبغي الانتباه إلى أن التمييز بين الأبعاد الثلاثة من باب التنظير، لكنه ذو فائدة منهجية إذ يمكن الدارس من فك خيوط هذه الأبعاد التي لا ترد إلا في صورة متماسكة . فالسرد فعلى و بنوي في الوقت ذاته، إذ يقدم الحكاية في صيغة لغوية بطريقة تجعل العوامل النصية تتشكل في تحالف مع الأحداث التي تحكي عن العالم والإنسان ، في صورة ملفوظ خطابي منجزم في نص.

و يصطنع عبد الملك مرتاض في كتابه "تحليل الخطاب السردى" مصطلح السردانية ... و العمل السردى بالنسبة إليه هو عبارة عن كتابة يكتبها شخص تطلق عليه اللغة "المؤلف" مع تأكيده على أنه علم أصبح شديد التعقيد (14) .

و يميز محمد الناصر العجيمي - في مؤلفه " في الخطاب السردى نظرية غريماس "، بين الخطاب السردى و السردية ، إذ يدل الخطاب السردى على النص المقروء في حقيقته المادية ، و من حيث هو نص مكتوب بلغة معينة وتستغرق قراءته وقتا معلوما كما تخضع لترتيب زمانى خطي ، أما السردية فتحيل على النقيض من ذلك،

على ضرب معين من القراءة ، و طريقة خاصة في وصف إعادة و تنظيمها أي إعادة كتابتها انطلاقاً من فرضية مؤداها ، أنّ المعنى ليس معطى قبلياً ، إنما يستخلص من فنون التآلف و الاختلاف والتقابل القائمة بين الوحدات التركيبية العاملة و التحويلات المتتابعة في المحور السياقي ⁽¹⁵⁾ ، هذا من منظور سيميائي .

و لا شك أنّ هذا الموقف هو مثال حي للتضارب الاصطلاحي الحاص حول مفهوم السرد، و مع تجاوز ذلك ، فإنّ صاحب هذا الرأي يريد التأكيد على أنّ السردية هي من اختصاص النظرية العاملة الغريماشية فقط، و أنّ الخطاب السردى المقروء ما هو إلا إنجاز في عملية الكتابة كصيغة ، لكن ما غاب عن "العجيمي" أنّ هذه الصيغة التي تخضع لترتيب زمني خطي هي جديرة بالدراسة كون أنّ هذا الترتيب الخطي (كبنية خطية) هو الذي يعطي لطبيعة السرد المنجز في الخطاب ضرورة الاهتمام به ، والكشف عن مكوناته، ذلك أنّ تتابع الأحداث في السرد لا يمكن أن يقع إلا في تتابع زمني تفرضه بنية خطية تستثني لفظ عنصرين اثنين في وقت واحد ، مما يجعل التحليل اللسانياتي أكثر ملاءمة ، لأنّ ترتيب الأحداث في السرد في إطار علاقة قبلية وبعدية مسألة تركيبية ، أي أنّها تقع على مستوى الصيغة، لا على مستوى الدلالة.

و يؤكد غريماس AJ.Greimas في تمحيصه النقدي لمورفولوجية فلاديمير بروب V.Propp ، على التتابع في المحور السياقي انطلاقاً من تعيين مختلف أنواع الأنشطة التي يقوم فيها التتابع بمهمة إظهار القصة كبرنامج منظم ⁽¹⁶⁾ من المنظور السيميائي أيضاً.

و في المنظور اللسانياتي فإنّ تتابع الأحداث و تساقطها في العملية السردية يتم بشكل سببي ، يكون فيه السابق من الأحداث سببا في حدوث اللاحق ، فالتركيب الزمني للغة هو الذي يحدد الأحداث ، و شكل الخطاب، وصياغته.

و يذكر عبد الملك مرتاض في هذا الصدد أنّ تقنيات السرد الروائي تتمثل في تحليل العناصر التالية : بناء الحدث، و المؤشر الحدثي، و الترميز الحدثي ، و الحبكة السردية، و المناجاة، و الارتداد، و الإشارة (17) ، و هي تقنيات ، في نظرنا ، مرتبطة بصيغة السرد اللغوية التي تؤدي إلى مجموعة من الإشارات و الرموز على المستوى الدلالي . و يوفق تودوروف ، بين جانبيين في العمل الأدبي هما القصة والخطاب، ومعنى هذا أنّ الخطاب يثير في الذهن واقعا ما و أحداثا ما قد تكون وقعت ، وشخصيات روائية تختلط من هذه الوجهة شخصيات الحياة الفعلية (18) ، فالخطاب يحكي قصة ما ، لها ارتباط بالواقع .

و في سياق هذا التضارب الاصطلاحي ، ينصرف نبيل سليمان إلى التأكيد على مصطلح الحكّي بدلا من القص أو السرد ، لأنّه يعود أصلا إلى الحكاية و ليس إلى الكلام بإطلاق ... فالحكّي نشاط بشري أساسي ابتداءً شفويا مع الإجماع البشري ، و لم تلغ الكتابة (19) .

و يجمع سعيد يقطين مسميات السرد المذكورة سلفا في مصطلح واحد هو "الحكاية"، و يقصد بها "المقولة الجنسية" (*) ، الخاصة بجنس السرد ، وذلك لأنّه يتيح لنا إمكانية معاينة الطابع الجنسي المميز لجنس الخبر أو السرد (20) ، و تترك ، وفق هذا التحديد ، كلّ الأجناس التي تندمج ضمن السرد في عنصر "الحكاية" ، و الملاحظ أنّ هذا التحديد غير واضح.

و غالبا ما اقترنت التنظيرات في النقد الغربي ، في مجال السرد ، بالعودة إلى الأطر التنظيرية الكلاسيكية خاصة كتاب أرسطو (فن الشعر) ، الذي تحدث عن الملحمة ، وعن محاكاة الطبيعة .

و في هذا السياق ، ينبغي التأكيد على الحضور السردى في الموروث الأدبي العربي، بالإشارة إلى بعض الاستعمالات السردية في كليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة ، حيث استعملت عبارات : "زعموا" ، "بلغني" ، "حدثني" ، وتجسد هذه العبارات نوعا من الخطاب المصاغ بأسلوب غير مباشر، و هي صيغة خطابية تضع السارد في موقع ما ، فمصطلح زعموا ينسجم مع طبيعة السرد القائم على التسلسل الزمني الذي يأتي من الخارج⁽²¹⁾.

و يبدو أن مجالات السرد كثيرة ، لتشمل الخطابات الأدبية واللاأدبية، مروية أم مقروءة ، فالسرد يمكن أن تحتمله اللغة المنطوقة شفوية كانت أم مكتوبة ، و الصورة ثابتة كانت أم متحركة ، والإيماء (Le geste) ... و السرد حاضر في الأسطورة ، وفي الحكاية الخرافية (Légende) ... و في الأقصوصة ، والملحمة و التاريخ⁽²²⁾ .

و لقد انطلق فلاديمير بروت من الحكايات الشعبية عندما وضع قواعد السرد ، ويقرر روبرت شولتز Robert Choulitz في هذا الإطار أن المقصود بالساردية هو قدرة المتلقي أو القارئ على ترجمة النص السردى إلى قصة ممكنة التأويل ، باتباع قوانين السرد في السببية و الزمانية ، و يلاحق المؤلف الساردية هنا في تجلياتها السردية بإزاء (كذا) كل نص وفق هذين العنصرين سواء أكان قصة أم رواية أم مسرحية أم فيلما⁽²³⁾ ، و هذا يؤكد أهمية التركيب اللغوي .

فالسعي ، مرويأ أم مكتوبا ، هو فعل سردي ، تنتج فيه حكاية ، والسرديات ، فرع معرفي يحلل مكونات و ميكانيزمات المحكي ، فللمحكي ، موضوع هو الحكاية المتوجهة إلى القارئ عن طريق فعل سردي ، و الحكاية والسرد مكونان ضروريان لكل محكي .

و يستفاد من ذلك أن الفعل السردي ، هو فعل لغوي ، لذلك كان مشروطا أن يرتبط السرد بأي نظام لسانياتي أو غير لسانياتي ، و تختلف تجلياته باختلاف النظام الذي استعمل فيه (24) ، و حسب بارط ، يبدو من المعقول اتخاذ اللسانيات نفسها مؤسسا للتحليل البنوي للسرد في إطارين هما:

1- لغة السرد . 2 - ما بعد الجملة .

و إذا كان من المعروف أن اللسانيات تقف في التحليل عند الجملة ... فإن الملفوظ على العكس من ذلك ، ليس شيئا آخر سوى تتابع الجمل التي تكونه: فمن وجهة نظر اللسانيات فإن الخطاب لا يخلو مما يوجد في الجملة (25) ، فهي أصغر مقطع فيه ، والملاحظ في الخطاب السردي أن اللغة هي التي تتحدث و ليس المؤلف لأن المؤلف يوجد في الوقت ذاته مع النص، و هو بالتالي يعجز أن يسبق ما يكتب أو يتخطاه (26) ، وبهذه الصورة يصبح المؤلف في حد ذاته معطى بنوي نصي .

و على العكس من ذلك فإن التحليل اللسانياتي قد أهمل بشكل واضح علاقة الواقع بالقصة و بذلك فما يتبع من طرح مسائل تتعلق بهوية الكاتب والسارد، و علاقتهما بالشخصيات لا يفهم إلا بالعودة إلى مفهوم المقام في اللسانيات من خلال علاقته بالكتابة، و أقصد بالمقام ، الإطار الاجتماعي وما يجري فيه ، و ليس مجرد مكان يلقي فيه الكلام، و تنتظم فيه اللغة .

هوامش:

- 1 - أنظر: جيرار جينيت و آخرون ، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير ، ص 7 - 8 .
- 2 - فاضل تامر ، اللغة الثانية ، ص 170 .
- 3 - أنظر المرجع السابق ، ص 178 .
- 4 - أنظر عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، ص 247.
- 5 - أنظر: فاطمة أزرويل ، مفاهيم نقد الرواية بالمغرب ، نشر الفنك ، المغرب ، 1989 ، ص 178 .
- 6 - أنظر: بول بيرون ، السردية حدود الفهم ، تر / عبد الله إبراهيم ، مجلة الثقافة الأجنبية ، ص 26.
- 7 - تودوروف و آخرون ، نظرية المنهج الشكلي ، نصوص الشكلايين الروس، ص 107 .
- 8 - أنظر: المرجع نفسه ، ص 179 ، 180 .
- 9 - المرجع السابق ، ص 179 ، 180 .
- 10- Jean Ricardou : Le nouveau Roman , Seuil , Paris 1984 , P 123 .
- 11- Jean Pierre Faye : La raison narrative , Langage de la literie critique de l'économie narative , ed Balland , Paris 1990 , P 429 .
- 12 - أنظر: بول ريكور ، الوجود و الزمن و السرد ، ص 42 .
- 13 - أنظر: بارط و آخرون ، طرائق تحليل السرد الأدبي ، ص 75 .
- 14 - أنظر عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ص 189.

- 15 - أنظر محمد ناصر العجمي ، في الخطاب السردى نظرية غريماس ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1993 ، ص 71 .
- 16 - أنظر: بارط و آخرون ، طرائق تحليل السرد الأبي ، ص 184 .
- 17 - أنظر : عبد الملك مرتاض ، تحليل الخطاب السردى، ص 25 .
- 18 - أنظر: بارط و آخرون ، طرائق تحليل السرد الأبي ، ص 41 .
- 19 - أنظر: نبيل سليمان ، فنية السرد و النقد ، ص 266 .
- * - الجنسية : مقولة مقومية ضابطة لأي كلام من حيث مبادؤه الثابتة التي يتحدد لنا من خلالها بعده الجنسي .
- 20 - أنظر: سعيد يقطين ، قال الراوي ، المركز الثقافي العربي ، ط 1 ، بيروت ، الدار البيضاء ، 1997 ، ص 12 .
- 21 - أنظر : عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد) ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، ديسمبر 1998 ، ص 166 .
- 22 - أنظر : بارط و آخرون ، طرائق تحليل السرد الأدبي ، ص 9 .
- 23 - أنظر: روبرت شولتز ، السرد و الساردية في الفلم و القصص ، تر / سعيد الغانمي ، مجلة الثقافة الأجنبية ، ص 67 .
- 24 - أنظر سعيد يقطين ، الكلام و الخبر مقدمة للسرد العربي ، ص 19 .
- 25 - أنظر بارط و آخرون ، طرائق تحليل السرد الأدبي ، ص 11 .
- 26 - أنظر: مويس شورودو و آخرون ، نظرية الرواية ، ص 81 .